من مذكرات جدّة أمي
فاطمة بنت محمد سعيد آغا البديوي

1869 – 1958 م

صور من الحياة الاجتماعية بدمشق

في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين

بقلم حفيدها الدكتور عدنان آق بيق

كتب خالي عدنان :

قمتُ بتدوين هذه المذكرات على لسان جدتي فاطمة ، عام 1953 ، وكان عمرها آنذاك 84 عاماً ، وبالرغم من سنّها فكانت تبدو عليها علائم الصحّة والنشاط . . كانت تقضي نهارها قابعة في سريرها ، وقد رفعت الغطاء حتى وجهها ولفّت الشال على كتفيها وعصبت جبينها بالقَمْطَة وانكبّت على أشغال الصوف التي تحبّها . . وكانت سليمة الحواس ، تُدخل الخيط في ثقب الإبرة . . بيضاء البشرة قصيرة القامة ضاحكة الوجه ، لا تنقطع عن أداء فروضها الدينية في أوقاتها المحدّدة .

كانت جدَّتي تشعر بلذّة فائقة في الحديث عن ذكرياتها ، وخاصة حين تجد من يستمع إليها ؛ أما أنا فكنت ممن يُجيد الاستماع ، فكانت طالما تحدّثني عن طفولتها وصباها ، ولكنها أيضاً كانت سرعان ما تنسى ما روته لي ، فتعود لتحدثني عنه ذاته بعد ساعة أو أقل . وذاكرتها كانت بالنسبة لأحداث الماضي قوية ، فتراها تتذكر كل التفاصيل ، ولكنها تنسى ما جرى لها اليوم والأمس .

وخلال إحدى زياراتي القليلة لدمشق عام 1953 ، سنحتْ في خاطري فكرة تسجيل ما كانت جدتي ترويه على مسامعي ، ولم ألبث أن شرعتُ بهذه الفكرة على الفور ، فرأيتني أجلس بجانبها والقلم والورق أمامي ، ومضت تنطلق في أحاديثها وأنا أسجل . ولما كانت تصمت في بعض الأحايين كنتُ أذّكرها فأسألها عن هذه الحادثة أو تلك ، فتعود لتروي وتروي . .

امتلأت أمامي صفحات وصفحات ، وجاء اليوم الذي شعرتُ فيه بأن جدّتي قد ألقت على مسامعي مُجمل سيرة حياتها ، وإن كان ذلك بوجه الإيجاز لا الإطناب . فها أنا ذا اليوم أحرّرُه كما سمعته ، دونما تهذيب أو تشذيب ، حرفاً بعد حرف وبنفس لهجتها العامية الشاميّة . وإنما رتّبتُ حكاياها بشيء من التسلسل التاريخي قدر الإمكان .

وآن أوان السفر من جديد ، فتركتُ هذه المذكرات لتبقى بين أفراد أسرتي صدىً باقياً من أنفاس جدتنا المحبوبة ، ولتذكّر أبناءنا وأحفادنا بعبر مفيدة وصور طريفة من ماضي أسرتهم ومدينتهم الحبيبة دمشق .

وأخيراً ، فها هي فيما يلي قصة حياة جدّتي كما روتها لي .

* * * * *

قلتُ :

وها أنا ذا اليوم ، في عام 1998 ، وقعت بيدي هذه المذكرات الطريفة والقيّمة ، بعد 45 عاماً من تدوينها وبعد 40 عاماً من غياب صاحبتها عن مسرح الحياة ، فقرأتُ ما فيها ، ووجدتني في الواقع لا أعرف عن جدة أمي فاطمة البديوي أي شيء ، فأنا مع الأسف لم أدركها أصلاً ، فقد أبصرتُ النور بعد وفاتها بأربع سنين .

وكم شاقتني هذه المذكرات ، وشعرتُ بأنفاس صاحبتها وكأنها ترويها علي بنفسها وتنفعل بأحاسيسها وعواطفها ، طفلة ويافعة ثم صبية فكهلة وعجوزاً مسنّة . وكم أمتعتني حكايات وأضحكتني أخرى ، ثم كم اخترق الحزن قلبي ومزقه بسكين حادّة جارحة عندما مرت بي تلك الفصول المؤلمة عن وفاة أطفالها الثلاثة محمود وزهرة وجيهان . وبخاصة جيهان الحلوة التي كانت في ربيعها الثالث كالياسمين ، والتي راحت الأم تتذكر بلوعة لثغتها المحببة بكلماتها الرقيقة الطاهرة ، ثم انتزعها الموت بقسوة ، وهي لا تزال ممسكة بحبات الملبّس الدمشقي الأبيض ، فانطلقت روحها الصغيرة الطاهرة تزقزق فوق أسطحة الشام وذُرى قاسيون وبساتين الغوطة .

جيهان . . لك كل الرحمة أيتها الملاك الطاهر .

لم تتمالك نفسي البكاء المرّ مرة واثنتين وثلاثاً عندما قرأتُ هذه الحادثة المؤلمة التي لم أكن حتى دارياً بها ، ثم لم تقوَ عيناي عند كتابة هذه السطور على احتجاز الدمع من جديد ، فعجز القلم عن التعبير وحلّت محلّه العبرات الحارّة . هل هناك أبلغ من هذا النص المباشر الحادّ الباتر بكل ما فيه من لوعة وألم ؟ . .

كم تمنّيتُ أن أحظى ولو بصورة قديمة باهتة لهذه الفقيدة الصغيرة ، أو على الأقل لو أعثر لها في تربة الباب الصغير على قبر أذرف أمامه دموعي على جيهان عمّة أمي ، تلك الطفلة البريئة التي اختطفها الموت قبل الأوان . .

تابعتُ القراءة ، وأنا أكتشف فصولاً تعبق بأنفاس صاحبتها التي بتُّ أشعر الآن حقاً بدمها يسري في عروقي ، ولمستُ بأن هذه الحروف لم تُكتب بالحبر بقدر ما كُتبت بلواعج صاحبتها وأحاسيسها العفوية الصادقة . وفيها اكتشفتُ فصولاً مهمّة من التاريخ الشعبي لشامنا الخالدة ، جدّة كل جدّة وأمّ كل أم .

* * * * *

كم أشعر الساعة بمسؤولية نقل هـذه المذكـرات إلـى جمهـور القـراء المهتمـين بتاريخ دمشق وتراثها الشعبي ، فهي في الحقيقـة لـم تعـد مذكـرات شـخصية تتعلـق بفاطمة البديوي فحسب ، بل هي أصداء حيّة من مـاضي مدينتنـا الحبيبـة في أواخـر القرن الماضي وأوائل الحاضر ، عاشتها كل جدّة وكل أم وزوجة وأخت وابنـة مـن بنات دمشق .

لكنني أطلب من القارئ الكريم أن يعفو عن بعض الكُليمات التـي قـد يـرى فيهـا بعـض النبـوّ ، وذلـك أنـي آثـرت تـرك هـذه النصـوص القديمـة علـى عامّيتهـا وعفويتها ، لم أعمد إلى تشذيبها أو تهذيبها ، بالضبط كما فعل خالي من قبلـي . فما قيمة الأدب الشعبي إن نحن أعملنـا فيـه يـد التغيـير والتحويـر والتهذيـب ؟ إن قيمة الماضي لهي بنكهته الحقيقية وعراقته العفوية غير المتكلّفة . .

وختاماً ، فها هي ذي كلمات جـدّة أمـي أنقلُهـا كمـا وردت علـى لسـانها ، وبقلم حفيدها عدنان .

أما العناوين فهي من عندي ، أضفتُها لتكون القراءة أسلس وأمتع .

وكذلك أشير إلى أنني قد عملت غاية جهدي للتحقّق من جميـع الأحـداث التاريخية الواردة في هذه المذكرات ، وكذلك سنوات وقوعها . وجهـدت بـالعثور على تواريخ المواليد والوفيات والزيجات للشخصيات الرئيسة الواردة فيها ، كيمـا يكـون لهـا قيمـة الوثيقـة التاريخيـة المؤصّلـة ، وربطـاً للحـدث بالمكـان والزّمـان ، والصورة إن أمكن .

وهذا في النهاية يمسي ما يمكن أن نُطلق عليه تاريخاً بمعنى الكلمة .

* * * * *

صاحبة المذكرات : فاطمة بنت محمد سعيد البديوي
1869 – 1958 م

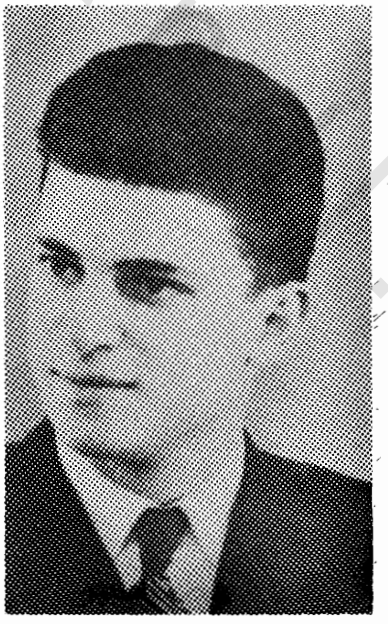

كاتب المذكرات ، حفيد فاطمة البديوي
الدكتور عدنان ابن القاضي محمد آق بيق

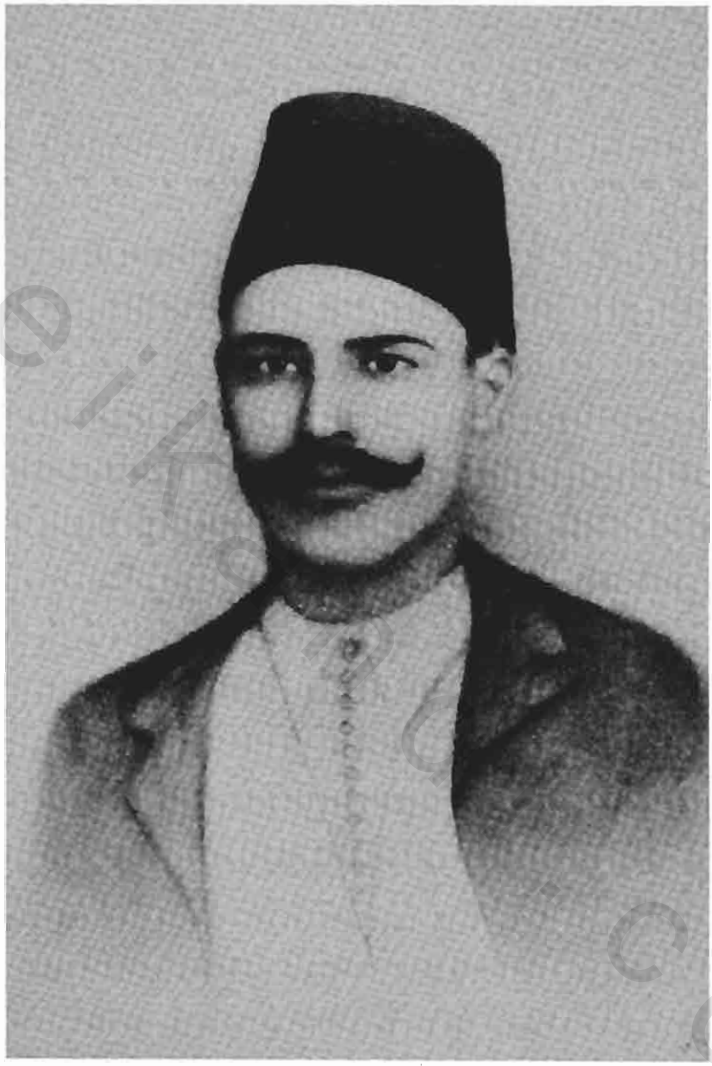

أحمد آغا آق بيق ، زوج فاطمة البديوي

1866 – 1929 م

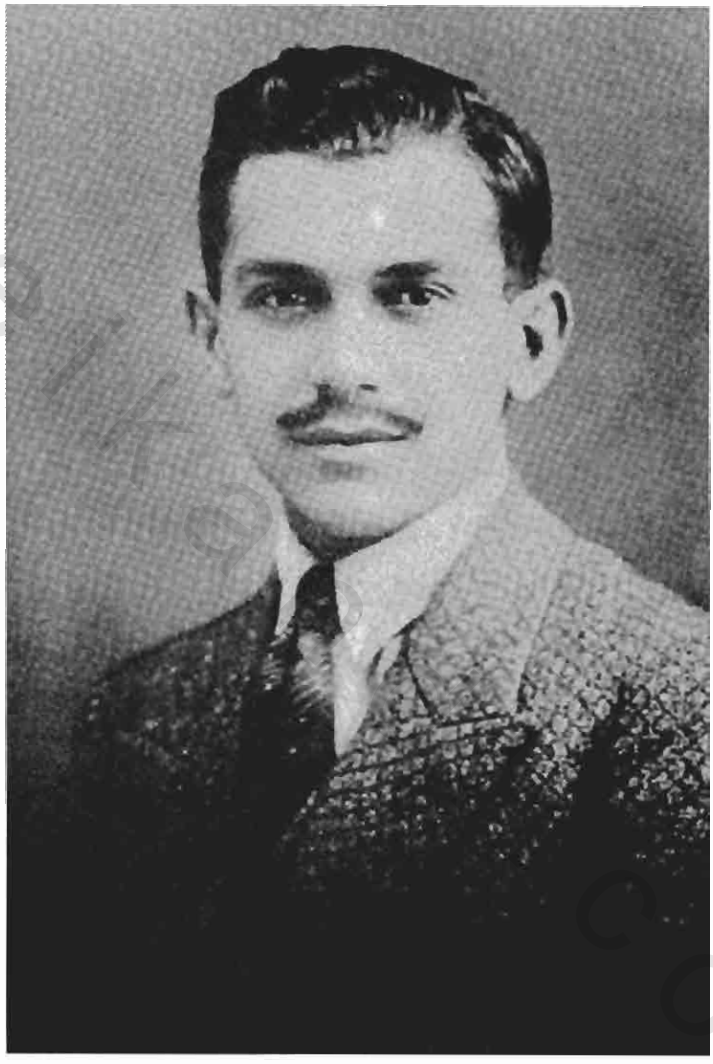

القاضي محمد بن أحمد آغا آق بيق
ابن فاطمة البديوي صاحبة المذكرات
1904 - 1976 م

«فنجان قهوتك عليّ»

كان جدّي آغا حارة ، بيطلع بإيده كل شي . . وكان في واحدة إسمها أم سعيد ، وإجت أم سعيد قالت له : «دخلك يا آغا . . سعيد بدّهم ياخدوه عالعسكرية . . بدّك تنفّد لي ياه ، وفنجان قهوتك عليّ !» . وتاني يوم ، إجت حوّا خانم ، قامت أمي قالت لها : «خدي يا حوّا خانم هالصرّة وعطيها لعمّي ، وقولي له هادا فنجان قهوتك !» . .

قامت حوّا خانم نطرت لحتى إجا ، فزّت لعنده وحاطّة شويّة بنّ بالصرّة ، وقالت له : «والله يا آغا ، والله مستحيّة ومخجولة . . تفضّل هدول !» .

قام فَرَدْهُم ، ويلاقي لك ياهن شويّة بنّ ، وحسّبها أم سعيد . . قام ركب فوقها ونزل فيها ضرب فين يوجعك ، وكان قايم من النوم مشمّر ومكشّف ، ويقول لها : «يا صفتك يا نعتك . . إيه أنا عاوز فنجان قهوتِك ؟» . وكان هو مستنّي أم سعيد بالدقِيقة .

وقامت أمي طار عقلها وتقول له : «دخلك يا آغا . . عمّي هي حوّا خانم مو أم سعيد !» .

يوم ان «طخّت» المادنه

بعدين جدي أبو أمي كان يسحب صلوات بالأموي ، قام ضرب المدفع ، قال : «الله . . ما عدت ألحق أشرب !» . قامت طخّت [1] فيه المادنة لصحن الجامع لحتى شرب . يبقوا بيت السَّقّا أميني كتير صالحين .

* * * * *

(1) طَخّى : تعبير عامّي دمشقي ، يعني أقعى وانخفض . أما أن «تطخّي» المئذنة ليشرب مَنْ عليها ، فهذه «تخينة» زيادة ، ولعلّه كان رأى ذلك في منامه !

سوق مدحت باشا مأوى للكلاب !

وعمّي صالح [1] كان بدّو يشتري سوق مدحت باشا عالصفّين ، قامت أخته قالت له : «شو بدّك فيه ؟ هادا لسّه بيصير مأوى للكلاب» . قام سمع كلامها وما اشتراه . ولّما مات ، كل ولد مدري كم ألف ليرة دهب طلع له ، وراحوا ديّنوهم لبيت عمر باشا [2] ، أكلوهم عليهم .

عرس أمّي

أمي ليلة عرسها ، كان أبو خالد البديوي – الله يرحمه – كهْنه وإختيار ، بقا باعت معه أبي أغراض للعرس ، قالوا : «إجا العريس . . إجا العريس . .» . شقّت أمي عيونها قامت لمحته وحَسَّبته العريس ، قامت غمّضت عيونها وما عادت ترضى تفتحهم . وبعدين لّما فات أبي وقعد هو ويّاها يحاكيها ما تردّ ، يقول لها : «افتحي عيونك» ، ما تردّ . قام ينادي لأمها ، قامت شقّت عيونها ولقته غير هداك ، وأبي يبقى حلو كتير ، ركدت وراه وجرّته وما خلّته يطلع .

بدلة عرس أمي كانت كلها قصب صَرْمَة [3] عروق عروق ، قعدت أمي وعمتي قصقصوها وعملوا لي ياها بدلات صغار على قدّي . . تنين صغار ما في حدا ينبّههم ويعلّمهم . . يبقوا يدقّوا اللحمة ، وقال هلّي ما تنعم يدعبلوها ويعطوها للقطاط .

---

(1) أي والد زوجها ، صالح آغا آق بيق ، أبو أحمد . والكنّة بالشام تنادي حماها «عمّي» ، وحماتها «مَرْت عمّي» ، أما الجيل الجديد اليوم فيؤثر على ذلك : عمّو وخالة .

(2) كنا لنتحاشى عن ذكر الأسماء ، غير أن ما بأيدينا هنا وثيقة تاريخية ، تعهّدنا ألا نحذف منها شيئاً ولا نحرّف فيها قيد أنملة .

(3) الصَّرْما كلمة تركية sarma مشتقّة من فعل sarmak ، أي يلفّ ، يغلّف . تُطلق على الجوخ الثمين المطرّز بخيوط ذهبية أو فضية . وكان هذا النوع من التطريز يستخدم لعمل كسوة الكعبة الشريفة ، أو لمعاطف كبار الضباط والحكّام ، أو لأثواب العرس للنساء .

الله يجيرنا من العين الصيّابة

لمّا كانت أمي حبلى فيّ ، كان في واحدة اسمها شرّوف ، بس يا لطيف بيقولوا عنها عينها صيّابة وبتخرق . . مرقت عليهم وكانت حبلة وراحت . وبعد منها مرقت بعد يوم مدري عشيّة ، وقالت لها : «قومي اولدي ، لإيمتا حاملة هالبطن وقاعدة ؟» . قالوا لها : ولدتْ . قالت : «منين ولدتْ ؟ امبارح ما كانت ولدانة !» .

قامت اتعسّرتْ وضعفتْ على أثر الولادة ، وبعدين الحكما قالوا لهم : «بدّكم ياها ولاّ بدّكم الولاد ؟» ، قالوا لهم : «لأ ، بدّنا ياها» . ومن بعدها ما عادت جابت اولاد [1] .

لمّا حَمَّرت

والله الحمد الله ، ماضي عليّ أيام . . مرة حمّرت وأمي لسّاها صغيرة وما بتفهم بالاولاد ، وعمتي الله يرحمها كمان ما عرفوا يداووني . عشّشت الحميرة بعيوني وصارت تسيل . . ما خلّوا كحّال . . في واحدة يهودية بطالع الفضّة ، أخدت أربع ليرات دهب وما استفدت شي . . تاري هالسّيل معشّش . . وقتها أنا ورضا بك العابد .

هيك لحتى بالأخير تبقى أم عارف الله يرحمها ساكنة بالسّاحة والقاعة ، وبيت أهلها بيت رمضان مشهورين للعيون ، أخدوني لعندهم ، يا ويلي الله لا يدوّقها لحدا . . يا لطيف . . قعدوا أبو عارف ومن عندها رجال ، كل واحد متل اللاّطة واحد على رجليّي وواحد على إيديّي ، وفتحوا عيني يجأروها ويسحبوا العرق بهالسنّارة ويقرطوا من سفله بالمقص قرط قرط . . سبعتعشر عرق حطّوهم

---

(1) من الواضح أنهم أجروا لها عملية استئصال للرّحم ، بسبب وجود تليّف أو التهاب ما .

عالورقة ، ويجيبوا بعدين هالملح وهالليمون وبيقطروا . وبعدين بيعطوه بالأخير للواحد إبرة ويحطّوه بعين الشمس وبيقولوا له : الضُمْهَا .

وكان في خَسْتَخَانه على طريق الصالحية وفيها وردشان [1]، وكانوا مشقّيت بيتنا بيت الإمام ، وابن الإمام شغلته بالخستخانه ، ياخدني لعنده يقلب لي هالجفن ويحك لي بالحجرة الزرقا ، ويسحبني متل العميا عالبحرة وأسفح أسفح على عيوني وأرجع .

وكان في حُكَما : نسيم اليهودي ، وواحد يهودي بالقساطلية ، وأبو صالح شورى بسوق القطن مواجه الخضيرية ، وراغب أفندي [شورى] طلع إجَزي [2] .

وهادا يلّي بالقساطلية ، يَعْلَى آمته ، أخدوني لعنده وشارطوه على أربع ليرات . . قلب لي هالجفن وساوى لي عين ، ووقّف يقول لهم : «ما بساوي التانيه لتعطوني كمالة الأربع ليرات» . . وتفور أمي ، لراحت تديّنت من بيت شهيم وعطوه .

وبعدين سرقوني من أبي وأخدوني لبيت رمضان ، وفي إلنا قرايبين بيت فارس آغا ومانعينّي عن الميّ بعد ما قصّوا لي السّيل . . وكان في بالأوضة هلّي حطّوني فيها شربة ، الكامخت عليها هالسِّمك ، خلّيهم ليطلعوا وأمسك هالشربة وأكرع أكرع لأشبع ، ورجّعها ونام .

حطّوا لي درانيم على نقرتي ، ما أقدر أتحرك لا هيك ولا هيك ، وبعدين قلعوه وقشطوه بالموس هو واللّحم ، وحطّوا لي ورق هالسِّلق ، ويبقوا ينقعوا قمع رمّانه حلوة وقمع رمّانه حامضة بنجاسة ولد صغير ويكحّلوا فيها العين ، لأن بيقولوا : «بتجي على نجاسة ، وما بتروح إلا على نجاسة» . . والله قضّيت كتير ، بيقولوا : «يا ندري من بعد الجدري ، ويا عيون من بعد الحميرة» . .

---

(1) وردشان اسم معروف لأهل دمشق في مطلع القرن العشرين ، وهو طبيب نمساوي كان مقيماً بدمشق في أواخر العهد العثماني . أما الخستخانة فكانت عند بوّابة الصالحية .

(2) إجَزي (أو إزَزي) : صيدلاني بلهجة الشام القديمة ، مصدرها من التركية : ecza أدوية .

يبقى يركّبني حسين على هالفرس ، ويسوق فيّ وياخدني على حارة اليهود ويكحّل لي عيوني ، ويتلفّت عليّ ويقول لي : «أنا ابن ناس ، أنا ابن نِعَم» ، ينخُر قلبي [1] .

أمّي وستّي وأم ستّي

أمي [2] أوقات تنهزّ ، تروح لبيت أهلها . . أبي شو بدّه يجاكرها ، يروح يركّبني على كتفه وياخدني . . ويبقى البوابات كل شويّه وشويّه بوابة ، يدقّ هالبوابه ويفتحوا له يصل للبوابة التانيه ، يندهه : «يا حارس» ، يفتحوا له حتى يصل عالبيت . . تاني يوم ستّي تقول لها : «خطيّه يا بنتي ، هالبنت يداوروها» ، حتى ترجع ويتصالحوا . .

ستّي ما كان في منها ، بنت محمد آغا الحصني ، وأمها بنت السمّان . . وين بيت الحصني ، يبقوا يحطّوا الحلّة على وشّ البحرة ، ويحطّوا بوسط منها عصاية ، ويحطّوا اغراض الحلاوة مشان الحج ، وتدقّ نوبة المزاهر ، وتصير العصاية تفتل لحالها لحتى تستوي الحلاوة [3] . ويفرّقوا عالأهل ، ويصبّوا بالسحاحير وياخدوها عالحج .

كان أبي [4] صاحب حظ كتير ، والله عشيِّه لمّا يجي يكتّ المصاري بصينية الأركيله الكبيرة . . كان بالأول عطّار ، وبعدين قعد بمشيخة الحارة .

* * * * *

(1) حول طب العيون بدمشق آنذاك ، انظر ما سيرد بمذكرات الدكتور شاكر الخوري 1876 .
(2) وكان اسم أم فاطمة آمنة السَّقّا أميني ، توفيت في بدايات القرن العشرين .
(3) قبل شويّ «طَخّت» المادنه ، قلنا : ماشي الحال . . بس كمان صارت هلّق العصايه تفتل لحالها وتطبخ حلاوة ؟ تخينة هيك كتير والله يا ستّي !
(4) أبو فاطمة كان محمد سعيد آغا البديوي ، وليس لدينا تاريخ ولادته أو وفاته .

بيت آق بيق بمحلّة تحت القناطر

كان بيتنا عتيق رمّة ، بعدين هدّوه وعمّروه وطلع بيت لايق تحت القناطر ، لكن ياحسرتي ما تهنّوا فيه ، باعوه واشتروا بيت القنوات [1] . وصارت تلبيسة أبوك فيه .

تحت القناطر [2] تبقى بيوت راتبة . . بيت الطَّرَقْجي ، بيت العادلي ، بيت البارودي ، وهالنّاح على هالصف بيت الإمام وبيت راشد ، مشقّيت منّه حارة بيت الشربجي ، كلّه أكابر وكلّهم مُسعدين ، قاطع منّه شويّه بيت الحسيبي وبيت الدالاتي . حارة محشية حشي كلها أكابر .

خالي عبد الغني السقّا أميني

خالي عبد الغني شو كان فالح ، تشوفه عين تراه عم يكرج ويركد ، اشترى ببستان البطيخي والبركة وبستان الباشا ، واشترى بيوت بالعمارة والقنوات . بَسْ يبقى قد حاله بْخيل ، قال يمص العنبه والتِّفل يحطّه بالخابية ، قال يساووه خلّ .

* * * * *

في كان واحدة ببيت جدي إسمها أم عبدو ، جابوها لعند أمي ، وكانت أمي جايه جديد ، وعاشت عندنا وتجوّزت ، وأخدها مصري وإجاها اولاد ، وأنا لمّا وعيت عالدنيا قول لها «أختي آمنه» . وتبقى الله يرحمها تتخطّط بالشحّار وتاكل السمك وتقرط حسكه ما تقيمه .

---

(1) أي محمد بن أحمد آغا آق بيق . وقولها «باعوه» كان حوالي عام 1942 بعد أن رمّموه .
(2) تحت القناطر محلّة كانت معروفة بين الخراب ومادنة الشّحم ، بطرف حي سيدي عامود .

يبقى بيتنا يغلي غلي ، والله من عند الباب لراس الديار يفرشوا الفرشات ، الفرشة بجنب الفرشة . . يبقوا بالصيف يناموا بالدّيارات ، يمدّوا لهم هالبسط وتحتهم عبي يردّوهم عليهم حتى ما يتوسّخوا . . وفي تخت خشب كبير ، يفرشوا لأمي عليه ، ويقعدوا بهالفرشات عشيّة وتبدا السّير والقصص ؛ كتير شي ظريف بالكترة ، وبالأخص إذا كان في ضَو قمر . ويبقى بيتنا ما يخلى من الضيوف ، دوم يغلي غلي . . خصّا بيت يوسف آغا ، أهل عمتك أم ديب ، شو يحبّونا ونحبّهم ، والرّخار بيت يوسف آغا دوم بيتهم يغلي غلي ، يبقا لهم المعضّمية ويجيبوا قاقون عجبه والله . والتانيات يجوا لعندهم المعاضمة .

مرّة كانوا نايمين عندهم المعاضمة ، قاموا بهالليل دنيه رمضان ، صار السّحور ، قامت ميمونه حماته لأبو قاسم ، قامت بدّها تسحّرهم وبدّها تفوت لبيت المونة ، يبقا له باب من المربّع هلّي نايمين فيه . وفاتت على مهلها طالعت الاغراض ، وقامت ضَرْ ـ ت [1] وهي طالعة بالعتبة ، قام واحد قال له للتاني : «قوم صار السّحور ضَرَب المدفع !» .

والله رمضان كان له رنّة . . تشوف على هالسّحور يساووا خشاف برمّان ، ويقعد عمّي أبو اسماعيل ياكل ويحكي سير ، ويبقى يضحك يطير هالخشاف من تمّه ومناخيره .

يقعد أبي على بكرا يغلي هالشاي ، ويحطّوا هالقريشة وهالجبنة وهالزّيتون ، ويجي أبو اسماعيل يحكّ بالساقط ، يحكّ ويحرّك فيه الشاي بعدين ويضحك .

* * * * *

(1) كنّا قد اعتذرنا في المقدّمة عن بعض الكُليمات النابية ، فعُذرنا تحت باطنا ، وكل مين ذنبه على جنبه . . إيوه !

بقا لمّا يجـوا يـزوروا بنـات محمـود باشـا ، عندهـا أمي أمّـون قاعـة وعليهـا جنينة ، تفتح باب القاعة عالجنينة والجنينـة إلهـا طـالع مـيّ ، مـن كـتر هـالميّ تطلـع كزبرة البير مشاط مشـاط ، وتبقـى عالحيطـان نازلـة مـن عيونهـا . وروح لعندهـم نحـوّش ونبيـع لبعضنـا عـروق ألمـاس ، يعني مـن كزبـرة البير ، ونلعـب بهالديـار «بِشْتِكْها» [1] ، نقعد نص قعدة ونفقش بإيدينا ، وننطّ نعمل طمّيمة . . حَيَّلاّ [2] .

كانوا بيت يوسف آغا بصقاق البركة [3] . . اصألله بيت كبير ، وكانوا حسـن آغا ومصطفى آغا وعلـي آغـا وخليـل آغـا بهـالبيت كـل واحـد إلـه قرنـة ، وكلهـم ونسوانهم بالبيت وكلهم على فرد قلب . . خصّا ميمونة الله يرحمها ووسيلة مرت تلّو وآمنة مرت الديري وحسيبة وعاتكة وعليا وحُسْن . . يبقوا يخيّطوا سـوا مريـم وحسيبة ومروة ، ويجي خليل آغا يقعد على هالتخت بأرض الديار ويفرّق عليهم الكِرِه .

بيت العابد

وبيت العـابد . . يبقـى عبـد الغنـي باشـا ورضـا بـك وخـالد ورشـدي اولاد محمود باشا ، ما صفي منهم حدا غير رضا بـك ، كلهـم راحـوا ، اصـألله هديـك الإيامات . . محمود باشا يبقى له محارة بيضة عالية ويركبها وخـدّام يركـد وراه ، واولاده كلهم جَخ .

مصطفـى بـك كـان عنـد السـلطان ، وبيـت العـابد كـانوا كلهـم القايمّقـام والمتصرّف . . يقولوا وقتها الدولة كلها لبيت العابد . . هنّه يوظفوا وهنّه يعزلـوا ، وهنّه الكل باكل . .

---

(1) بشتكها : كلمة لا معنى لها ، مجرد تنغيم لفظي ، مثلها مثل هشتك بشتك .
(2) حَيّ الله : كناية عامّية تعني : لا على التعيين .
(3) زقاق البركة حي في محلّة السّويقة آخذ إلى سوق باب السّريجة ، وقربه زقاق حطّاب .

حادثة جوزي أحمد آغا آقبيق

جدّك الله يرحمه عاش حياته بعذاب رجله . . كان في بالجْدَيْدة عرس أبو عبدو غزاله ، وكان جدّك صغير . . انعزموا عالعرس وطلعوا ، وكان صغير وحلو ولابس هالقصب ، وفي واحدة بيت الحنّاوي عينها البعيدة بتصيب . . كلّه من الله . . قوّصوا جاجة فاتت بقلب السياج ، إجا بدّه ينكشها يطالعها ، داير الزناد ناح رجليه . . علق الزناد بالعلّيق قام طلع على رجليه وشعلت قواعيه . . طفّوا له قواعيه ، وجابوا جمل ، حطّوا هيك خيشة تبن وهيك خيشة تبن ونزّلوه عالشام .

وما كان حكما متل هلأ تفهم . . كان ديب الساطي الله يرحمه داوى له ياها ، ولكن ضل خردق من جوّا . . المخ طلع وعضام رجليه مع منّو . . هيك صرّة . وشو طالعوا بارود ، يبقوا يدكّوا الجفت بارود وخردق وحديد وخردق ، وكله طلع على رجليه .

وعاش حياته كلها بعذاب رجله ، وأخوه قاسم راح بالرعبة . . حزقت بقلبه وراح فيها . . انصاب بمرض القلب ، والله كان قاسم وقاسم . . قاسم أفندي يشتغل بالسرايا ، يعني الاتنين تشرّكوا بهالعرس . شو حياته جدّك ، لولا ما جسمه قوي ، صفّت رجله على طاق اللحم . يي عالسلاح ، والله الواحد عمره ما يقرّب عالسلاح !

وقائع عائلية

قاسم أفندي خلّف سعدية وعبد القادر أبو قاسم وأنور ومحدّين وأسعد ، وسعدية أخدوها بيت الزّين . وقت مات قاسم ضلّت مرته أم عبد القادر ببيت حماها ، ويبقى قاسم أفندي عزيز عالعيلة ، وجدّك كان صغير فاتوا

فيه : «أخوك ومرت أخوك واولاد أخوك !». بعدين غصبوه وكتبوا كتابه عليها . وليلة العرس هرب وسكن عند أم عارف ، جابوه وبرطلوه بالمصاري . . نافلة ، مو ممكن .

وكانوا حاكيين فيّ وبعدين بطّلوا ، ولكن حطّوا علينا وأخدوني . وقت أخدوني ، عمتي نقلوها من البيت . . (تبقى أم عبد القادر مرت جدّك عمتي) . . واستأجروا لها بيت بالقنوات بالتعديل ، كل يوم ياخد لهم طبخ . وبعدين اتفقنا وقعدنا سوا ، وتبقى بسيطيّة وقلبها نضيف . ولكن بعدين تركها ما صار له قلب يحطّها ويقعد وكانت مرت أخوه . . لكن ضلّينا قاعدين سوا لحتى ماتت .

يوم عرسي

وقت عرسي [1] صاروا يتماتلوا فيه ، يقولوا : «متل عرس بيت آقبيق» ، وعمّي ما بدّو يجيب وقتها مغاني ، قاموا توسّطوا بيت اليوسف وقالوله : «يا أخي إنت كم صبي عندك ؟» . . وبعتوا خبر لسعدة وروزة ، وتبقى الخرشوقة شيتهم اسمها ليلى بنت أبو قفّة . . بنص الليل تقوم تهرّج وتقول : «يامو بدّي بانه» . .

والمداعي يقعدوا على تخوت ، وان كان في نسمة ولاّ برد ولاّ مطر يخيّموا البيت ، ويبقوا المداعي كل طفّة بطفّتها تجيب مشكاك قباقيب يربطوه بالحبلة ، يلبسوا بالعرس قباقيب شبراوية .

والعروس يفوّتوها على مخدع ، ويغمّضوا لها عيونها ويدورولها وشها عالقرنة ، هلّي بدّو يشوفها يفوت يكشف على وشها ويقول : «حصّنتك بالله» . وقبل ماتفوت ، واحدة تشلّحها الكندرة ، وواحدة تجبلها السّفرة ، وهيك كل واحدة إلها بخشيش . وتقوم واحدة تمسك محرمة وتلمّ هالألمات من هالمداعي .

---

(1) كان العرس في عام 1886 ، وكان عمر العريس أحمد 20 عاماً ، والعروس فاطمة 17 .

ويجيبوا هالغندرة ويغندروها ، ويشكّوا لها هالألماس على هالشَّبقة [1] ، ويلحشوا لها ضفايرها ضفيرتين لقدّام ، وصدرها يعبّوه ألماس ، ويجيبوا هالمِيْدْكيّة حمرة وعليها عروق دهب ، ويلبّسوها قبقاب مدهّب ، ويوقفوا قرايب العريس ويمسكوا معاها الشمع ، ويصرخوا : «أوْها . . أوْها» ، ليجي العريس . ويقدّموا لناح العريس ويطرقوا راسو براسها ، ويفوتوا يعدّوا .

ويجوا هالمغاني ويمدّوا محرمة قدّامهم ويمسكوا هالدفوف ويوصفوا : «اسم الله اسم الله يا زينة» . . وتجي هلّي عليها نقوطات ، ويشتغل وَرّ المصاري كلّ منّو على مقداره ، لتقلب المحرمة هالقدّ ، ويضبّوا هالمحرمة وياخدوها ويقعدوا هالمغاني عالتخت ويقسموها .

تبقى أسما السنونية جوق ، وسعدى وروزة جوق ومعهم ليلى بنت أبو قفّة ، والحولة جوق ، وأنيسة بنت جلالة جوق ، والكرّوزة جوق . . وأنيسة إلها رشّ دهب إله شكلة من هالكتف لهالكتف ، وكان يحبّها البكري ، وعيونها ما شفتهم على حدا ، وتوقّف تدبك وهالرشّ يعمل «خش خش» .

والعريس جلوته وحده . . أهل العريس وحدهم ، وأهل العروس وحدهم ، وهالنقوطات عم تلتحش . وأول ما يفوت العريس يزلغطوا له ويقولوا : «أوْها ، ارفع راسك واقشعها . . أوْها ، قبل ما تفتح مجمعها . . أوْها ، إن كان ما عجبتك . . أوْها ، لبيت أبوها رجّعها ! . .»

* * * * *

كل ما يجي أبي لعندي يبقى معي هالجيب . . يبقى لي ناموسيّة كبيرة من صدر القاعة للباب ، يوقف قدّام الناموسيّة ويملص من جيبه ويزتّ على ضهرها : البردقان ، الكَسْتنا ، البلح . .

---

(1) الشَّبَقَة كلمة تركية : şapka ، تعني : القبّعة ، غطاء الرأس .

وكانوا إن طبخوا حليب يسكبوا لي زبديّة هالأدّ ، كل يوم ما تنخرم السكيبة .

أيام المشمش يجيبوا هالقطّافية الكبيرة ملانه ، ويحطّوها بأرض الديار ، ويحطّوا هالصحون ويحطّوا هالمشمش بهالصحون . . يخلص صف يطلع صف ، هيك لحتى تخلص .

شو كنت أتغندر !

«واه الوَاه» شو كنت أتغندر ، حطّ هالكحلة وهالخطوط ، وحطّ التشكيل على راسي ، وشعري كنت إكعى فيه لمّا روح عالحمّام ، وكنت إتشكّل بالياسمين .

ابقى روح لعند هالتجّار ناح خان الحماصنة ، آخد هالملايا القصب على أبي ، وفوط الحمّام كلها قصب آخد وامشي . صاحب سعد أبي من صغره قبل مشيخة الحارة ، والله يبقى يعبّي الدهب ويعدّهم بالصواني .

والله الصابون هلّي يجيبه عمّي صالح آغا ما شفت بعد هالصابون ، هلّي هالقدّ وطبعته هيك وروايح مسك . يجيب السحّارة ، ويحطّوا لي سلّم ، ودايز ما فتل القاعة في حلقة ، يناولوني الصابون صفّها على هالحلقة ، وخلّي بين الصف والصف فاضي حتى يجي عليه الهوا .

عزايم الفياجنة

كل يوم يندقّ الباب . . مين ؟ إجت الفياجنة . . عندهم عرس . . يجيبوا حمال الحطب حملين تلاته ، ويروحوا هالنسوان عالسوق يتبضّعوا ويتجهّزوا . كل يوم نطبخ لهم مجدّرة ومناسف ، يقعدوا بأرض الديار وينصفّوا ، هيك صف

رجال وهيك صف رجال . وبعد ما يقوموا عن الأكل يمسكوا دبكة ، ولّما ينطّوا النطّة يصل راسهم للنانرجة ، ويقولوا : «دارك أبو أحمد يا دار . . دايم الدوم تضلّ عَمَار . . بوجود الأفنديّة ، دوم يجيلك زوّار» .

كانت مريم للطبخ ورحوم لأوض الفلاّحين ، واللحّام يبقى عالبوابة ، يوم العيد يجي يدبح الخواريف عنّا بالبرّاني من سنة لسنة ، مدري أديّش ياخد الليرات الدهب ، ويبقى اسمه أبو ياسين .

«كلّه راح بَعْزَقَة»

والله كان عندي بيوت كتير ودكاكين . . بيت بصقاق البرغل [1] ، ودكان بالبزوريّة ، ودكان بسوق الخجا ، وحصّة بالدَّرخبيّة ، وحصّة بجونية ، وحصّة بنجهة ، وجنينة خان زاده ، آ خيّو . . والله خلّف لي كتير أبي ، كلّه راح بعزقة يا حرام الشوم . واولاد عمّي لو كان صحيح ضابّين إيدهم كان عندهم شي كتير .

كان ابن عمّي أبو فايز يركب هالفرس ويشكل هالكرباج بالجزمة ، وفلاّحين تابعين وراه . . ويلاّ على هالضيع . . كان هو ماسك ضيع أبي ، ولّما ينزل يكون معبّي الخرجين تبع الفرس دهب . . يكتّوهم بأرض القاعة ويعدّوهم بالطاسة .

الفحم زمان أوّل

زمان أوّل ما كان في صوبيات . . كان في فحم مو متل هلأ . . حضّر المنقل قيم صفوته وأطمر كل طَمْرة هالأدّ ، وجيب هالطَّمرة وحطّ فوق هالطمرات وعود عمّره ، وحطّ هالدقّ ويشعل المنقل تلاقي الهبابيل الزرقا طالعة . بعد ما

(1) من أزقّة الشاغور المعروفة ، ومنه حماتي السيدة رجاء تسابحجي ، طيّب الله أيامها .

يقطع فوّته على هالمخدع ، يقعد لتاني يوم ، يروح الوشّاني نحفر على تاني طمرة .

يبقى عنّا بيت المونه في تتخيتة عالية وتحت منها فاضي ، عبّي فيه الفحم ، وعالتتخيتة صفّ الحطب ، تمّ صف الحطب لحتى يصل لسقف الأوضة . . حطبة حطبة أترسه للسقف .

والله يبقى خير كتير ، اصأله . . نجيب هالصينية ونحط هالفحم بالمطبخ ، ونساوي كنافة اسمها «المغسولة» حليب وقَطر . . حطّ هالحليب يطشطش ، وحطّ فوقه قَطر وبعدين حليب ، تلات أربع مرّات . ولمّا يستوي الطرف التحتاني أرفعها على كرسيين قش وأطرقها بالحيط لحتى تتلحلح وأعرف استوت . . طبّ فوقها صينية رَخَر وأقلبها . .

حياتي اليومية

أقعد بهالليل وحطّ هالميّ ، ودقّر باب الحريم من خوفي لينزل عليّ حدا . . وأتناوق على هالطُّوَق عيني عليها . . إسها لي سهوة ، وقوم قول لحالي : تأخرت . وقت يطلعوا بالتراحيم كون بأول وقت يأدنوا الصبح كون بالمشرقة عم أنشر الغسيل .

وقوم على بكرة بكّير أطلع على هاليـاخُر [1] ، ساوي هالفرشة تبع الدواب ، وجيب هالسطل ونضّفها وغسّلها وحسّها بالمحسّة وبالكبرة ، ومسّح لها عيونها وأعقد لها ديلها .

والسجّاد مدّه بهالديار ، وأنزل فيه فرك بهالطاسة على قفاها ، وبعدين قش وراها ، تلاقي هالقدّ الغبرة .

---

(1) الياخُر : كلمة فارسية الأصل ، تعني حظيرة الخيل والدّواب الملحقة بالدار العربية .

خير كتير كان ، والله السّمنة وقت أغليها وعبّيها بالتنكات تلاقي ريحتها متل المسك . وأبقى صوّل القمح وكوّمه على سماط الليوان لحتى ينشف ، وأبدره بهالمشرقة هالعلو ، نزّله من هالمشرقة وحطّه بهالكندوش .

واهلواه شو كنت شاطرة ، والله عمتك مسرّة [1] كانت جتنزل ورا الطّبَق ، عم أطلق وأنا عم أغسل . . تقول لي مرت عمّي حسيبة ، الله يرحمها ، وقت كنا سوا : «والله بشتهي تقعدي لك شوية قدّامي» . . اصأله ، تبقى متنيّة تقعد على هالتخت وتحطّ هالأركيلة من تمّها لتمّ عمّي .

حَبْلاس وصبَّارة وملبَّس

يبعتوا لنا من حاكورة المنتنة الحبلاس ، الصبّارة ، أشكال ألوان . . أيام الحبلاس حبلاس ، أيام الصبّارة صبّارة ، والله نعبّيها بالطّبق . .

ووقت ينقرا المولد شيت النبي ، الله مصلّي عليه ، المتولّي تبع الأموي يبعت لجدّك اتناعشر صرّة ملبّس . يقوم جدّك شو بدّه يبعت له نقيضها ، يساوي له كشك الفقرا ، لكن شو كشك فقرا : يجيب اللوز ، يدقّوه يدقّوه وينعّموه ، ويحطّوه بشاشيّة ويستحلبوه بالحليب ، ويحطّوا له عطر الورد وفستق ولوز وجوز هند ، ويحطّوه على وش الزّبادي كبب كبب . يبقوا بيت آق بيق [2] كتير كتير جَخ .

* * * * *

(1) يعني ابنتها مسرّة آق بيق ، ولدت حوالي 1898 ، وتوفيت إلى رحمة الله في عام 1979 .

(2) الكنية تركية : Ak-bıyık ، معناها : ذو الشوارب البيض . أطلقت على جدّ العائلة في القرن الخامس عشر ، وهو متصوّف مشهور في مدينة بورصة تؤثر عنه حكم ، منها : «الدّنيا مزرعة الآخرة» ، وكان من مريديه السّلطان محمد الفاتح نفسه . ويُروى أن الشيخ آق بيق دده Ak-bıyık dede ، كما كان يُدعى بالتركية ، بشّر السّلطان بفتح القسطنطينية ليلة 29 أيار 1453 م ، فتمّ له ذلك الفتح العظيم ، وعاد فقبّل يد الشيخ . هذا وقد هاجر فرع من العائلة إلى دمشق في القرن الثامن عشر ، وبقي بها إلى اليوم .

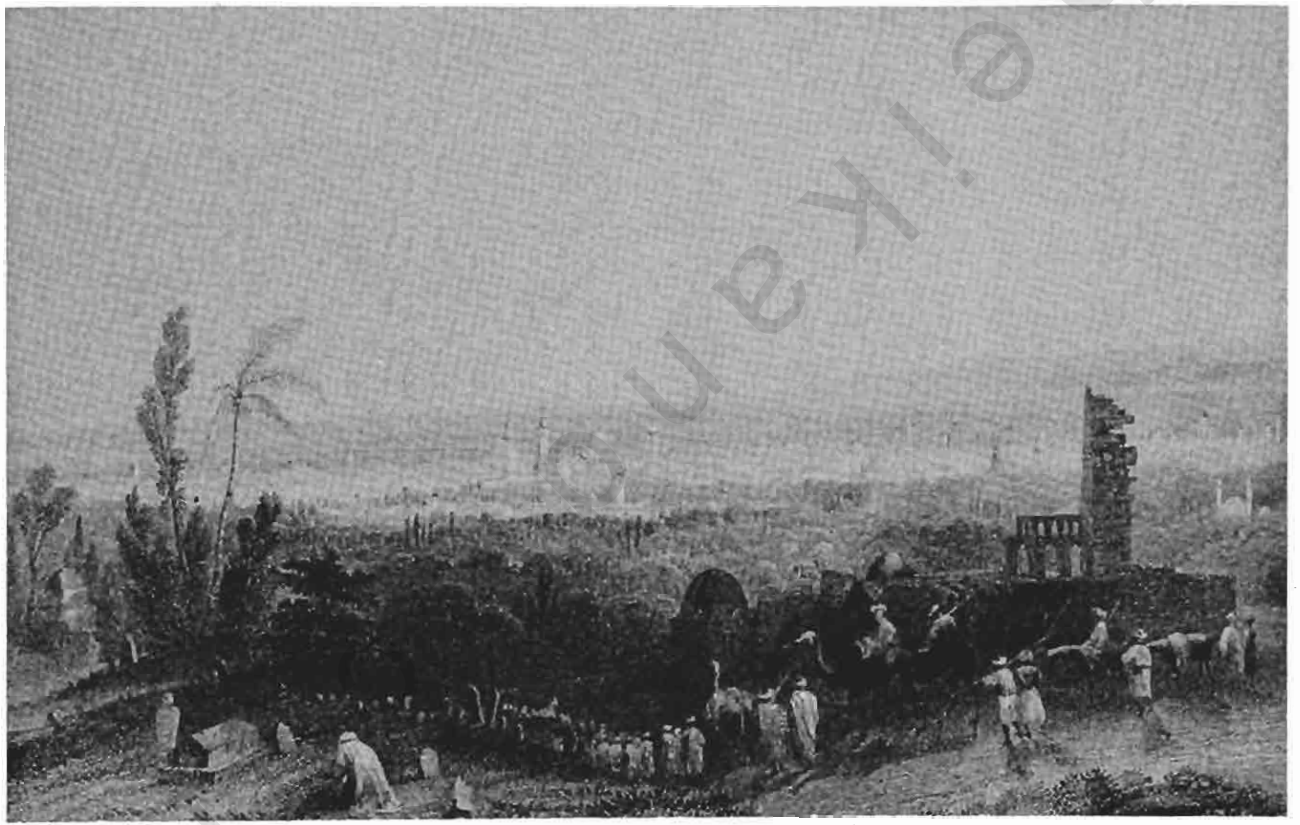

مصطفى أفندي آقبيق

يقعد مصطفى أفندي أبو ابن عمّك صبحي جوز أختك ، على هالليوان وننصفّ قدّامه ، ولا حدا يسترجي يحْرُك قدّامه ، أول ما حدا ينعس يقول له : نعست ؟ نقول له : لأ ، قاعدين !

وأم عبد القادر مرّة بالظاهر - غصب عنها - «زقزقت» قدّامه ، قام حكى سيرة : كنت سهران ، ومدري شو ، لحتى جاب مناسبة وقال : «والحمار ضَرَ-- !» .

واولاده هلأ كلهم ظراف ، سارة وزاهية وصبحي ظريف [1] . بس بيته كان عسر ، مرتّب ومرسّم ، لكن حلو وأكابري ، والعسكرية عاطيها استحقاقها ، هالسّيف وهالتّرتيب وهالنياشين .

الفريق مصطفى باشا آق بيق باللباس العسكري

(1) وأبناء مصطفى أفندي هؤلاء كانوا من زوجته الدمشقية من آل الجبّان . وقبلها كانت له زوجة أخرى في تركيا ، وله منها أولاد ، منهم الفريق عدنان وعاصم باشا آق بيق .

وين هديك الأيام . . كنت بالجْدَيدة أقعد بالشبّاك عند عشيّة ، وتلاقي على طرف النهر هلّي عم يعبّي ، وهلّي عم يغسل ، وهلّي عم يحكي ، وهلّي عم يغسل خاروفه . . شي بيسلّي .

ووين بيت أبو بلال ، تلاقي يساووا لنا هالعزايم ويعملوا جهدهم : الحليب ، البيض المسلوق ، الشاكريّة (ويقولوا لها : لبن أمه) . تبقى الجديدة شو بدّي قول لك ، كل يوم يطلع منها ميتين خيّال ضيوف ، ويبات فيها ميتين خيّال ضيوف .

كان بدّي تتفرّج يوم إجا الجراد . . تلاقي النساوين سارحة ، هلّي حاملة العصاية ، وهلّي حاملة التنكة ، وهلّي حاملة الطشت ، وينقروا عليها ويصرخوا : «يلّلا على الجراد . . يلّلا على الجراد !» . وتلاقي السَّمَا مُو مبيّنة .

بالجديدة قوم على بكرا بكّير ، ما يكون حدا قام ، قشّ قدّام هالبوّابة وكنّس المصطبة . . وحضّر دولات القهوة والأراكيل ، وعبّي هالجرّة من النهر يكون رايق . . يفزّ جدّك يقعد على هالمصطبة ، ويجوا بقا أبو الجود وأبو حسن وحسن الدّنا .

ينزل جدّك عالشام بكّير وقت يجهجه الضوّ ، وقريب العصر ما إسمع إلا عم تصهل الفرس ، وأركد أفتح البوّابة وأسندها ، ويفوت بهالفرس وهالخرج تحته متعتع محشي حشي .

يبقوا بالجديدة يركّبوا العريس عالفرس ، ويحطّوا حجب الفضّة والقصب ويدندشوها متل العروس ، ويركّبوا هالعريس ويدوروا بهالبلد هالطبل وهالزّمر .

* * * * *

وقت كنّا بخان الشيح

وقت كنّا بخان الشّيح ، كنا من المغرب نسكّر هالبوّابة . ومرّة عرب حطّوا بجنب النهر ، قاموا إجوا كسارة (قطاعين الطريق) بدّهم يفكّوا الجمال وياخدوها . وبهالليل ما تسمع إلا قواص ، وطلعوا فلاحين خان الشيح من عالأساطيح يضربوا . . وقام جدّك وعمّك يركبوا هالخيل ، وتسلّحوا وطلعوا من هالبوّابة وغاروا على الكسارة وهرّبوهم ، وجرحوا واحد منهم وأخدوا فرسه ، وطلعت فرسهم سارقها من زمان . .

* * * * *

مرّة زارعين بالسحرة بخان الشّيح سحرة بطّيخ ، لكن شي كبيرة ، بقا عمّك صالح واقف عليها ، وبقا واحد عسكري جندرمة في محابيس آخدهم يودّيهم لقطنا ، وراكب فرس ومسلّح . ولّما مرق لحش حكي للنسوان وعمّك واقف ، قام سبّه ، ولّما سبّه صار يبعّد لورا ويغور عليه ويقوّص بهالمارتينة ، تلاقي الغبار يعجّ عجّ وعمّك يستنّى يقرّب لعنده وما يهرب ، وكان ولد صغير . وينزل فيه بالحجار ، وبعدين نطّ عليه وزتّه عن الفرس وخلّصه السيف والبارودة ونزل بوشّه بالحجر ، كان حيموّته ، وقاموا المحابيس هربوا .

وهداك نزل عالشام اشتكى ، وكان وقتها رستان بك يوزباشي جندرمة ، وراح جدّك وقتها وحكى لابن اليوسف [1] ، ورستان بك اشتغل له كتير حتى نفاه منها . وكانوا إجوا لهنيك تحاوطوا عالحوش وبدّهم يلقطوه ، ما قدروا له ركب هالفرس وهرب .

---

(١) يعني عبد الرّحمن باشا اليوسف ، محافظ الحجّ الشامي وأكبر المتنفّذين في ولاية دمشق بأواخر العهد العثماني ، على دور السّلطان عبد الحميد والإتحاديين . ذكرناه في بحثنا : *"The Role of Leading Kurdish Families in Urban Politics of Late Ottoman Damascus, 1807-1918."*

«أرض جونية مسكونة ، يا لطيف !»

جدّك قال لّما يطلع عالضيعة ويمشي بأراضي جونيه ، وتبقى مسكونة ، يصيروا يلعبوا له برجليه ، ورجليه بالركابات ويمشي ما يقطع بعقله . وعمّ أبي حسين آغا يروح على بيت جن ، وكانت مقطعة ، ويروح حاطط السلاح وما يهمّه شي .

«الله يصلحه جدّك»

مرّة في جيرانا بيت ديب نصري ، وإلهم قماري عالقاعة ، ومرّة سمعت حسّ غوشة وشوابيش ، جايبين رسميّة بنت شيخ المكاريّة عم تغنّي وترقص وتفقُش ، وسمعت صوت جدّك الله يرحمه ، وأنا أتفلفل ويفور قلبي شو بدّي ساوي . . رحت في بنت عمتي عندها قاعة ، وبالصدر في ليوان ومكوّمة فيه الفرش واللّحف للسقف ، ورحت أنا تخبّيت ورا هالفرش ، وإجوا طلبوني ما كانوا يلاقوني ويدوّروا يدوّروا . . بالأخير قالوا لمريم : «قومي شوفي عند أهلها ؟» . قمت أنا لّما لقيت مريم حتروح طلعت .

أضْرَبْ ، جدّك يروح يسهر ، من خوفي من عمّي قوم دقّر عليّ الباب ، يجي يدفش الباب يقول : «إجا أحمد الله يرضى عليه !» ، وهو وين ، يكون سهران .

يجي جدّك شربان بهالليل ، يبقى طاقين ، وراكب الفرس ياخدها ، يبقى على طرف الحارة بيّاع حليب على حلّة هالحليب المهلّبيّة . . ويقول لها : اشربي ! وصاحبها يخاف منه ، يهرب ويروح لأبي يقول له : «دخيلك ، هدا صهرك» . يجي أبي لجدّك يقول له : «والله استحي وشّي من العالم» ، يقول : «مو أنا يا آغا ، هدا شريكي » (يعني الشراب) .

بعدين أضْرَبْ ، تاب واتمشيخ كتير الله يرحمه ، وراح عالحج . وحجّ وراح هو وأمي ، قعدوا بالمحارة هو بعينة وهي بعينة ، وراحوا حجّوا .

كان وقتها سعيد باشا [1] – الله يرحمه – باشا الحج ، كل ما مرق يقول له جدّك : «إيش يا ؟!» . . تقول له أمي : «يا ويلي ، باشا متل هادا بنقال له إيش يا ؟» . . يقوم يحرد وينزل ، تميل المحارة ، يركد ابن الشنواني يجلّسها .

الحجّ الشامي

يبقوا الحج يساووا له رنّة كبيرة . . يوم يطلع المحمل لا يتمّ أسطوح بالدرويشية ، كل الدكاكين يكرُوهم . . الشبابيك ، الأسطحة ، كلها تلانة . . تقعد هالعالم وينضرب المدفع ، ولّما ينضرب المدفع ياخدوا المحمل عالسَّنجقدار ويصلّوا عليه ، تبقى المشيرية ، يحطّوا السنجق هنيك . والشمع يلفّوه بالشال ، يطالعوه من بيت الطرزي بصقاق المبلّط ، ويحملوه زلمتين من كتف لكتف ، ويقولوا : طلع !

وتطوش هالعالم وتطرق هالمزّيكة ، وورا هالمزّيكة تجي الخيل ، تلاقي الخيل عم ترقص رقص . تلاقي اليوزباشي ، البينباشي ، على اكتافهم عم يلمع القصب وزنانير الصوف ، والياورات . مشقّيت منهم تلاقي الخيل عم ترقص رقص ، هيك ليصل المحمل .

ويصل ويجي ورا الخيل ، وقدّام منه اولاد العلي الخضري ، يلبسوا أبيض وجبّات خضر ، ويقولوا : الله أكبر . . الله أكبر . ويبقى المحملجي قاعد جوّا ومادد راسه ، والجمل عم يبعبع ، وهالرشّ الفضّة مدندش دندشة .

---

(1) أي محمد سعيد باشا شمدين ، محافظ الحج (1870–1892 م) . وكان جدّ عبد الرّحمن باشا اليوسف – المذكور أعلاه – لأمه . أما اليوسف فتولّى الحج بين 1892–1918 م .

محمل الحج الشّامي أمام سراي المشيرية ، صورة فوتوغرافية من أوائل القرن العشرين

ويمرق هالمحمل وراه تخت الباشا عالبغال ، هالبغال حاطّين لهم هالأحمر ، وبعدين يجي أبو حلاوة ، وهالعقيل فوقهم بقلب بعضهم ونازلين بهالطبول وعم يشوبروا ، وورا العْقيل هالعربايات وهالعالم . هيك للعسّالي ، وعند العسّالي يلبّسوا المحمل التوب الأخضر .

كانوا يروحوا عالمحاير مفردة ومجوزة . ووقت يصل الجمل لشبّاك سعد الدين بالميدان يوقّف ويبعبع ، يطلعوا يعطوه دعبولة لوز وسكّر ، ياكلها ويمشي .

ووقت يجي الحج ، وقت يصل لمزيريب ، تطلع الجردة ويلاقوا للحجيّة ويرجعوا معهم .

ما أحلى أيام العيد !

وقت الاعياد يبقى بقرنة القنوات في فضوة تبقى فيها قلاّبة ، وقدّام التعديل محارة دوم ملانة اولاد ، ويسحب صاحبها هالجمل . والقلاّبة قاعدين بهالقلاّبة وعم يقولوا : «يا صاحب القلاّبة ، مَرْتَك الطلاّبة . . وياصاحب المحارة ، مرتك الحمارة . . ويا صاحب المرجوحة ، مرتك الشرشوحة» . .

وجنينة خان زاده ، آخيّو ، بالعيد يعملوا فيها تخت ، وتلاقي هالعالم بهالتخت ، الدربكّة والدفّ وبيّاع الكعك وبيّاع المخلّل . . تشوف العالم عم تغلي غلي .

وقت القلاّبة بتطلع ما بيهمّ ، ووقت بتقلب وتفتل بيلحش القلب . يي بيه مصاريّي روّحهم بالقلاّبة ، دورتين تلاتة ، ويقولوا : عوّفت . وفي اولاد ما ترضى تنزل ، تجدّد . . وبسوق القطن عربايات ياخدوهم ويجيبوهم ، وبنزلة الدرويشية مشقّيت البيليك [1] كان يشتغل كراكوز .

---

(1) البيليك كلمة تركية beylik ، وهي دار السّعادة بأول سوق الحميدية ، كانت منزلاً لولاة دمشق حتى أواخر القرن الثامن عشر ، إلى أن عمّر الوالي كنج يوسف باشا سرايته .

من خيام العيد بدمشق ، لعبة الأحصنة الخشبية «الدوّيخة» ، صورة فوتوغرافية قديمة

اصألله زمان الحمّام

اصألله زمان الحماميم ، وقت النّفَسا نبقى نساوي جداد ، من جميع البهارات ، ندقّها وننخلها ونروح عالحمّام . ويوم حمّام الفسخ يفقسوا تلات أربع بيضات ويدهنوا لها بدنها .

ويوم الأربعين الجداد تجي البلاّنة ترش لها كل بدنها حتى يصير كل بدنها ، وبعدين تحط لها دلوك على وشّها ، وهلّي حاضرين ويفركوا لها ياه ، تتمّ قاعدة لحتى تعرق . . كل نتفة يفركوا لها بدنها ، وتجي هالبلاّنة تاخدها على جرن الحمّام وتنتف لها بدنها .

يبقى الحمّام إلو أهميّة . . نروح عالحمّام تبعت البلاّنة تحمل لنا هالبقج وتسبقنا ، وما تشوف بأرض هالحمّام إلا قشر الكرنب وقشر الجوز . . وتبقى أمي قبل يوم تساوي كشكة خضرة ، ونبقى نروح على حمّام عزّ الدين ، وما أطيب الكشكة الخضرة بهالحمّام ، نساويها ونحطّها بالزبديّة . . والرمّان الحلو والجوز أشكال ألوان .

بقا مريم الله يرحمها تغسّلنا ، يبقالها كل بزّ هالأدّ[1] ، وتحطّنا إدّامها وإلها كرسي مخصوص ومقصورة ما حدا يسترجي يقرّب ناحها . . ولّما تسخن الميّ تنده : «غنطوسة ، باردة !» . . وتحطّنا إدّام منها ، ولّما تعمل هيك براسنا تفركه فرك ، وتنده لغنطوسة تفوت غنطوسة تفرّكنا .

ما كان في حماميم بالبيوت ، والله هالحماميم بالبيوت طلعت حلوة . . شو ، قوموا انتعوا هالبقج وروحوا . نروح نحنا بالأكتر على حمّام الزين ، أهلي على حمّام القناطر ، وبنزلة صقاق رامي كان في حمّام الصغير . . اصألله أكل الكرنب شو ما أطيبه بالحمّام ، نمسك الراس من دنبه ونطبشه عالأرض يروح . . يعني كل شهر حمّام .

---

(1) قلنا سنترك العبارات على وضعها دون تحريف ، فعُذراً !

خدّوج الدّاية الله يرحمها شو كانت منيحة ، دوم ألَدْ على ركبها . . والله أبي يوم أطلق ينفخ النار مشان تسخين الميّ ، وساوي تغطيسة . . يمدّوا لي حصيرة بأرض الديار وطرّاحة وقت أطلق ، وفوت عالحريم وسكّر عليّ وأتسطّح على حفّة المربّع وأتمرمغ ويتناوقوا عليّ . . الله يجعل عملنا منيح ، ما حدا بقيان . .

راح لي تلات ولاد !

وين . . أنا راح لي محمود وجيهان وزهرة وريّا أم منيرة ، وطرح بعيون الشيطان خمسة . شو جيهان متل الياسمين . . حلوة كنت أعمل لها ضفاير ، وعملت لها بسفلهم جواريخ حمر . وتقعد بكتبيّة الليوان ، وتبقى قَرْطة وتقول : «لروح عالعثّة وأنكثها» . . عمرها تلات سنين ، طلعنا عالجديدة وسكنّا بآخر البلد ، وفي بيت الحنّاوي بجنب هلّي سكنّا عندها أم أحمد ، وهَيْ بيت الحنّاوي عينها صيّابة ، قامت نضرت الولدين وتكرفتوا هالاولاد ، ونزلنا من الجديدة بين الولد والولد عشرين يوم . . محمود ومحمود متل الخاروف ، وزهرة إن شا الله فالها معها . . آه ، إن شا الله بلاقيهم بالجنّة [1] .

جيهان كنت عم إغسل ، وعاطيتها كم ملبّسة وهي قاعدة ، وما لقيتها إلا لَوتْ رقبتها وسلّمتها ، ولسّاتها كامشة الملبّسات بإيدها [2] .

ووقت ضعفت زهرة ، أضْرَبْ ، شفت حالي راكبة بعربايـة ، وولد على ركبتي . . نجس تلوّتت إيدي ، وقفت العربايـة وقالوا لي : قومي اغسلي إيدك . وأسمع صوت ولد عم يبكي ببستان ، وألْطُش أنو لاقي شي طريق ما كنت لاقي أصَل لها . .

---

(1) لا زالت تطفر اللّوعة من كلمات الأم الثّكلى على صحائفنا هذه ، بعد وفاة أولادها بقرابة القرن ، ووفاتها هي بـ 44 عاماً .

(2) كم هو مؤلم وجارح هذا الوصف . . الله لا يورجيها لحدا . وكانت وفاتها بالحميرة .

وقت توفّت جيهان ، شفت حالي متل كأني بقصر ، ولقيت روشن طلعت عليه ، وعليه جهان ووشّها مجلّل ببرنجكة قصب ووشّها عم يشعل شعل .

ووقت كانوا جيهان ومحمود ضعفا ، شفت حالي قاعدة على حفّة المربّع ، وما لقيت إلاّ واحد فات بلفّة بيضة وهالولاد مسطّحين ، وقال لي : هلأ بتريدي هاد والاّ هاد ؟ . . وأنا ما كنت أسخى بهاد ولا بهاد .

الله يعيننا عليها ، يا حصرتي علينا ، بيحطّوا البلاطة فوقنا وبيمشوا وبيقولوا أنه بتلبسنا الروح ، وبنرفع راسنا بنطرق بالبلاطة وبنقول : «الله ! شو متنا ؟» . وبيجوا بقا بيحاسبونا ، هلّي من أهل الجنّة بيسألوه مين ربّك ، مين نبيك . . بيعرف . وهلّي من أهل النار - يا لطيف - بيقول : «ها ؟ ها ؟ ما ادري» . يا حصرتي علينا ، الله يجعلها عالإيمان .

طهور ابني محمّد

أبوك يوم ما تطهّر [1] طالعوه عالمربّع ، كان مربّع ورا باب الصقاق ، فوّتوه وسطّحوه جوّا ، وعلق برقبتي وما عاد يتركني ويقول : يامو يا يامو ، ويرجف .

ووقت عمّك بدّهم يطهّروه كان ديب الساطي موجود ، وجابوه على أوضة الفلاحين ببيت جدّك ، ومن غير درايتي ، وكانوا قواعيه وسخين ورجليه وسخين ، وحالة . . وفوّتوه وطهّروه وطالعوه ومالي دريانة .

وقت الطهور بدّهم يطهّروا ولد يجيبوا خيل ، يركّبوه على هالفرس وقدّام منها هالمرفعجية ، ويحطّوا له الألماس عالطربوش ويجيبوا له برنجكة حمرة ويحطّوها على وشّه ، ويلبّسوه بابوج قصب ، وسعيد مصلّي عالنبي قدّامه يقول : قلب العامر يصلّي عالنبي . وهالعراضات ولعب السيف والترس .

---

(1) كقولة الكناية الشامية : من أيام طهور جدّي ! فهذا هو طهور جدي محمد آق بيق .

وياخدوه ويزوّروه سيّدنا يحيى ، وياخدوه على هالبيت يغيّروا له قواعيه ويلبّسوه قواعي الطهور البيضا ، ويحطّوا هالسّفر وتاكل الناس . وبعدين يطالعوه ويطهّروه ، ومن عياط الناس . . «نير وغضير ، وصلّوا على محمد» . . ما بتسمع بكا الولد .

جوازة ابني محمّد ودراسته

كان بدّي تشوف التلبيسة هلّي صارت لأبوك . . بيوت الأكابر كلها اجتمعت ، وأخدوه لبّسوه ونزل صافحهم كلّهم وبوّسوه ، وأمك [1] جابوها بعربايا ، ومزوّقين الشبابيك والخيل بشرايط زهر وتشاكيل . . نزّلوها ، وقف أبو ممدوح عمّك حملها وفوّتها ، ومدّوا لها قدّامها ليانات سجّاد . وكان عنّا اليواخر البرّاني ساووا الأكل وحطّوه بهاليواخر ، الفايت والطالع والدرّيبة وينزلوا من عالأساطيح ياكلوا ويطلعوا . والله الصرّة هلّي جابوا لها ياها وقتها ، وعطتها أمك لعمتك عَدْلا ، وفيها من جميع ما تطلبه النفس .

حطّينا أبوك بالإعدادية ببيروت ، يبقوا الواحد يحطّوه بالإعدادية ويطلع منها ضابط ، وبعدين يصير . وأبوك لو ضلّت كان هلأ يوزباشي بنباشي ، الله أعلم . . يبقى يقعد ، انشا الله العمر إله ، عند عز الدين سلف أم ياسين ببيروت ، يحطّه بالأوضة لحاله ويروح هو يسهر ، ولمّا يطلعوا الاولاد يطلع أبوك يدقّ لهم بالفرّيرة .

أول الكل حطّيناه عند خجا أيوس بحارتنا ، قام يوم الواحد تعوّق ما كان يجي . . وينه ؟ وينه ؟ بعدين رحنا لقيناه ورا الباب عم يبكي ، مغيّلة عليه ورايحة . لحتى راحوا وراها لبيتها وجابوا المفتاح وفتحوا له .

---

(1) هي إنعام بنت خليل آق بيق القبّاني (1908-1960) ، حفيدة أحمد أبي خليل القبّاني ، وأمها رئيفة السادات (توفيت عن 31 سنة) . وتزوّجت عام 1920 ، وهي جدّتي لأمي .

طلعنا عالمحطة يوم بدّو يجي من بيروت ، طلعنا لاقيناه واقف بتمّ الفركون صغير هالطوله . مدري ليش وقتها طالعناه ؟ إيه وقتها بطلتْ . لو ضلّت دايمة كان هلأ ضابط ! قبلة يفوتوا عالرشديّة ، ويطلعوا من الرشدية يفوتوا عالإعداديّة .

قعد أبوك بالإعاشة [الميري] ، وقت ساووا الإعاشة وصار الغلا . . وبعدين توظف بالعدلية ودرس بمكتب الحقوق [1] .

وقت إجا من بيروت ، سافرت ريّا [2] ، الله يرحمها . مو بعد بكتير كان حرب الترعة [3] ، كان عمرها ثلاثين سنة ، سافرت هي وسافرت بدريّة بنت أم ديب ، قام جوزها راح بوظيفة عالحج ، والرّخر نَفَسا ما ولدت ، طلقت ما ولدت . . إجانا خبر عمتك ، أضْـرَبْ ، بعد يوم إجانا خبر بدريّة . وتركد أم ديب وتقول لي : يا مرت أخي هلّي صابك صابني .

تطبخ سارة بنت حماها الطبخ وتقعد تعدّ شقف اللحمة حتى ما تفوت تاكلها عمتك . . الله يجعل قلبنا أبيض . . والله عذّبوها كتير . . والله ما كان سبب موتها إلا هنّه . . حبلت وحطّوا عليها بدّهم يطرّحوها ، يعطوها أدوية يعطوها أدوية ، ما طرحت . . راحت السفر ما رجعت . . مضّوا حياتها بقلّة الرياحة .

كانوا بيت شعلان بالحج وقت ماتت بدريّة ، ودوّروها داير ما فتل النبي ، ويقولوا : ترحّموا عالغريبة . التنين قبل ما يروحوا يعدوا يغنّوا : «يا حبايب قلبي تعوا ودّعوني» . ما كان لهم شَبَه هالتنين . . بدرية ما أحلاها ، شو تحبّنا ، انشا الله بالجنّة يا إلهي .

---

(1) ثم أضحى ابنها محمد آق بيق رئيس محكمة بداية الجزاء ، ثم رئيس محكمة الجنايات بدمشق ، واشتهرت سيرته بالنزاهة والاستقامة ومناصرة الضعفاء ، حتى حمل لقب «القاضي النّزيه» . ولد عام 1904 ، وتوفي إلى رحمة الله بدمشق عام 1977 .

(2) أي ابنتها ريّا ، توفيت في تركيا حوالي عام 1910 عن 25 عاماً ، وزوجها صادق آق بيق .

(3) أي حرب السَّفَر برلك 1916-1918 أثناء الحرب العالمية الأولى .

وقت ضعف أبو ياسين جوز عمّتك أم ياسين ، شافوها بنومهم دوايـر الفرشة عم ترقص ، وقام لحقها .

العذاب هلّي تعذّبته عمتك أم ياسين بتربية اولادها ، مات وترك لها ياهم صغار ، وستّهم وعمومتهم أكلوا المال عليهم . أبوهم كان زنكيل كتير ويكسب مصاري ، كان يتاجر ، وقت مات أخدوهم كلهم وقالوا : «هدول مو لأبو ياسين» ، وأكلوا المال . قام يا لطيف عزّ الدين إجته بمبة فلقت راسه بالنصّ ، وحسن البعيد فطس الرّخري ، ولحقتهم بنتها كمان صبيّة .

عمتك قضّت كتير ، وتبقى نفسها كبيرة ، حطّت اولادها تعلّموا كار الخياطة ، وعلّمت بنتها وهي تشتغل وتقدّم لهم ، ما تنام الليل مشانهم .

من حوادث الثورة السورية 1925

مرّة بسيدي عامود [1] ما نسمع إلا حسّ الدَّبك على سقف القاعة ، قام طلع أبوك على سقف القاعة وأخد الفرد معه ، وكان وقتها ممنوع القواص ، وينطّ من عالأساطيح . قام هداك نزل على بيت الربّاط وهرب وراح ، وما تسمع إلا قواص بهالليل ، وكان أبوك رح يقوّص عمّك ، تخايل فيه لو ما صرخ . وأبوك نطّ من أسطوح لأسطوح ، وبيناتهم صقاق ، وهو ماسك بإيد فرد وبالإيد التانية الكاز .

وقت الثورة شو تَمَرْمَرْنا ، القتلى على عرض الطريق ، وما تلاقي إلا قتلى ممطرقة وأدمية سايلة . أخدونا على بيت الشّنواني بنزلة حمّام القاضي [2] . صار الطرق والسفق ، أخدونا لبيت خالي بالعمارة ، قال خالي : «الله يلعن لحية هلّي عند رغيف خبز» . . ومرت خالي خابزة عالصاج ، تلاقي تعطينا رغيف يشتغل الخطف عليه .

---

(1) كانت دار آق بيق بهذا الحي ، من أكبر دوره وأجملها ، على كتف شارع مدحت باشا .
(2) نزلة حمّام القاضي : حارة في حيّ سيدي عامود تجاه سوق مدحت باشا .

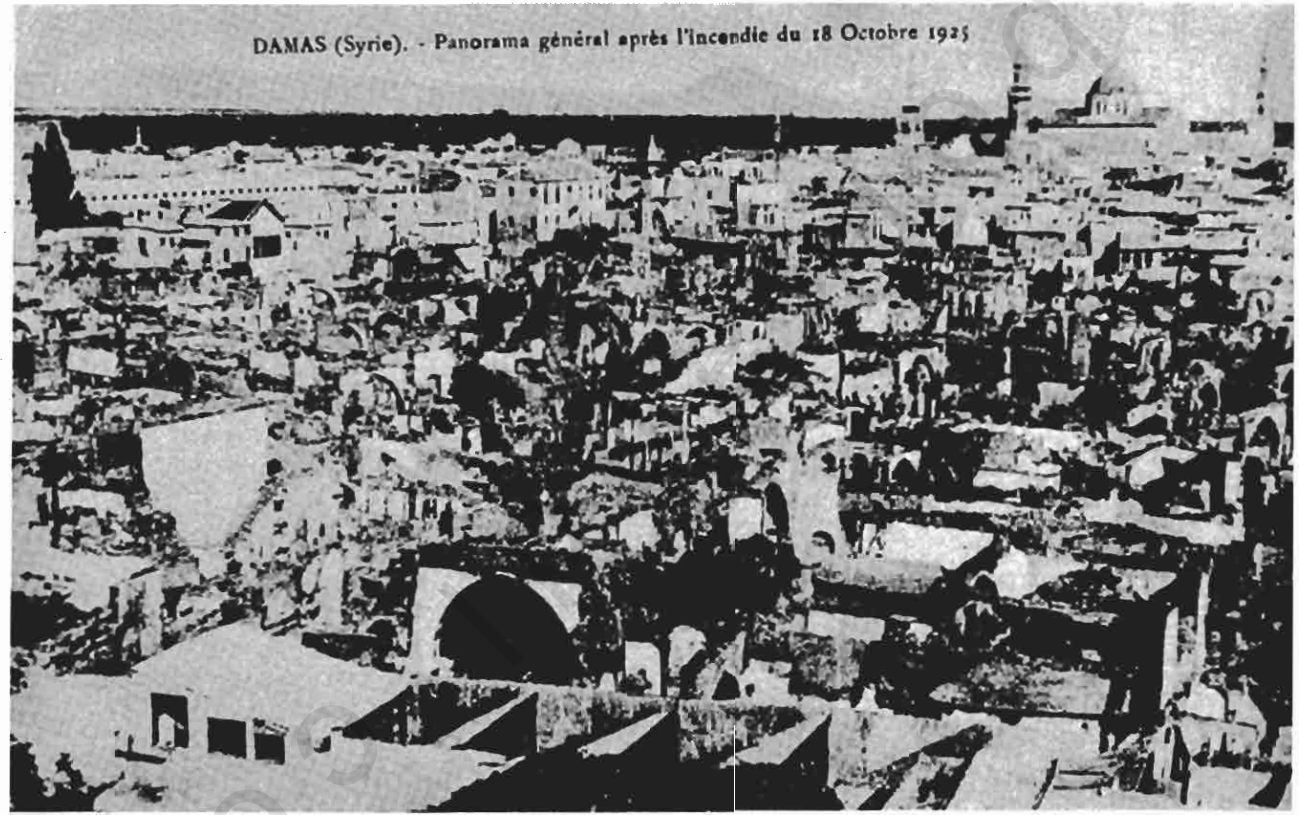

زقاق سيدي عامود (الحريقة) ، إثر القصف الفرنسي في 18 تشرين الأول سنة 1925

بعدين أخدونا على صقاق العدّاس لعند أهـل مرت عمـك فطمـة ، بعديـن أخدونا لبيت أبو قاسم عالخضيريّة .

صالح أفندي شورى ، الله يرحمه ، قال لـه لجـدّك : «إنـت ليـش مهمـوم ؟ كل واحد قواصـة قواصـة منروّحهم» . . وشـو عالسـقف بم بم طرق الضـروب ، وراغـب أفنـدي شـورى طلـع يشـوف منين الضـرب ، قـامت إجتـه رصاصـة وقـع بأرضه ، وشلون يوصّلوه عالتربة ؟

تركنـا البيـت لمّـا إجـت الحريقـة [1] ، وجـابوا حمّالـة يحملـوا الاغـراض ، وسـرقوا نصّهـم ، شـي يوصّلـوه وشـي يـاخدوه لحـالهم ، الصينـي ، الزبـادي ، كله راح . وطلعوا عالسقيفة فتحوا تنكـة السـمنة وقعـدوا يـاكلوا ، قـال لـه واحـد للتاني : «لك إجتنا النار» ، قام قال : إي شو بدّي أعمل لهم ؟» . .

وقفـوا السـنغال [2] علـى أسـطوح البنـك وعلـى المـوادن يصطـادوا النـاس ، وعالقلعة ، كل ما واحد طلع يناولوه .

وفاة جوزي أحمد آغا

جدّك الله يرحمه قبل ما يموت ضعف ، ومنـوب قلـب رجلـه هدمتـه هـدم ، كنا منقولين من عرنوس وعند أبو ممدوح بالسـويقة . ووقـت فضـي بيتنـا ، طلعنـا لبيتنا . . كان مسطّح بالفرشة ، والمسبحة بإيده وهو عم يقول : الله ، الله . وإجـا

---

(1) أي الحريقة الكبرى بزقاق «سيدي عامود» ، يوم قصف جيش الاحتـلال الفرنسـي دمشـق بتاريخ 18 تشرين الأول من عام 1925 ، للقضاء على الثورة . وأضحى هذا الحيّ ركامـاً بعد أن كانت فيـه أجمـل الـدّور الدمشـقية الأصيلـة ، كـدار مـراد أفنـدي القوّتلـي ، ودار صالح آغا آق بيق (أبو أحمد) التي دارت فيها أغلب أحداث هذه المذكرات .

(2) أي الجنود السنغاليين السّود ، التابعين للفيلـق الأجنبـي La Légion Etrangère في جيـش الشرق الفرنسي . وقد شـنّع هـؤلاء بـالمواطنين السـوريين ، وبخاصـة في مجـزرة البرلمـان بتاريخ 29 أيار 1945 .

لعنده نهارها محمود بك جوز فوزية أم أكرم ، قال : «الله يختم عالإيمان» . . من هون لبعد ساعة نزل بمنازلهم ، ولسانه ما فتر من قولة «الله» ، وشخصت عيونه للحق ، وقعد عمّك صار يقرا له .

والله مضّى حياته ما يحكي على حدا ، ما يحب يغلب حدا ، إيه والله . وقت إخدان الخاطر ما تمّ حدا ببيوت القنوات [1] ، كلّها طلعت أخدت الخاطر .

[انتهى]

* * * * *

(1) سكنت العائلة بالقنوات ، كما تقدّم ، بعد خراب بيتها في حريقة عام 1925 . ثم تنقّلت فاطمة البديوي ، صاحبة المذكّرات ، مع ابنها محمّد بعد وفاة زوجها ، إلى حيّ عين الكرش ثم إلى حي السكّة بالمهاجرين ، حيث توفيت في أيلول 1958 ، رحمها الله .

obeikandl.com

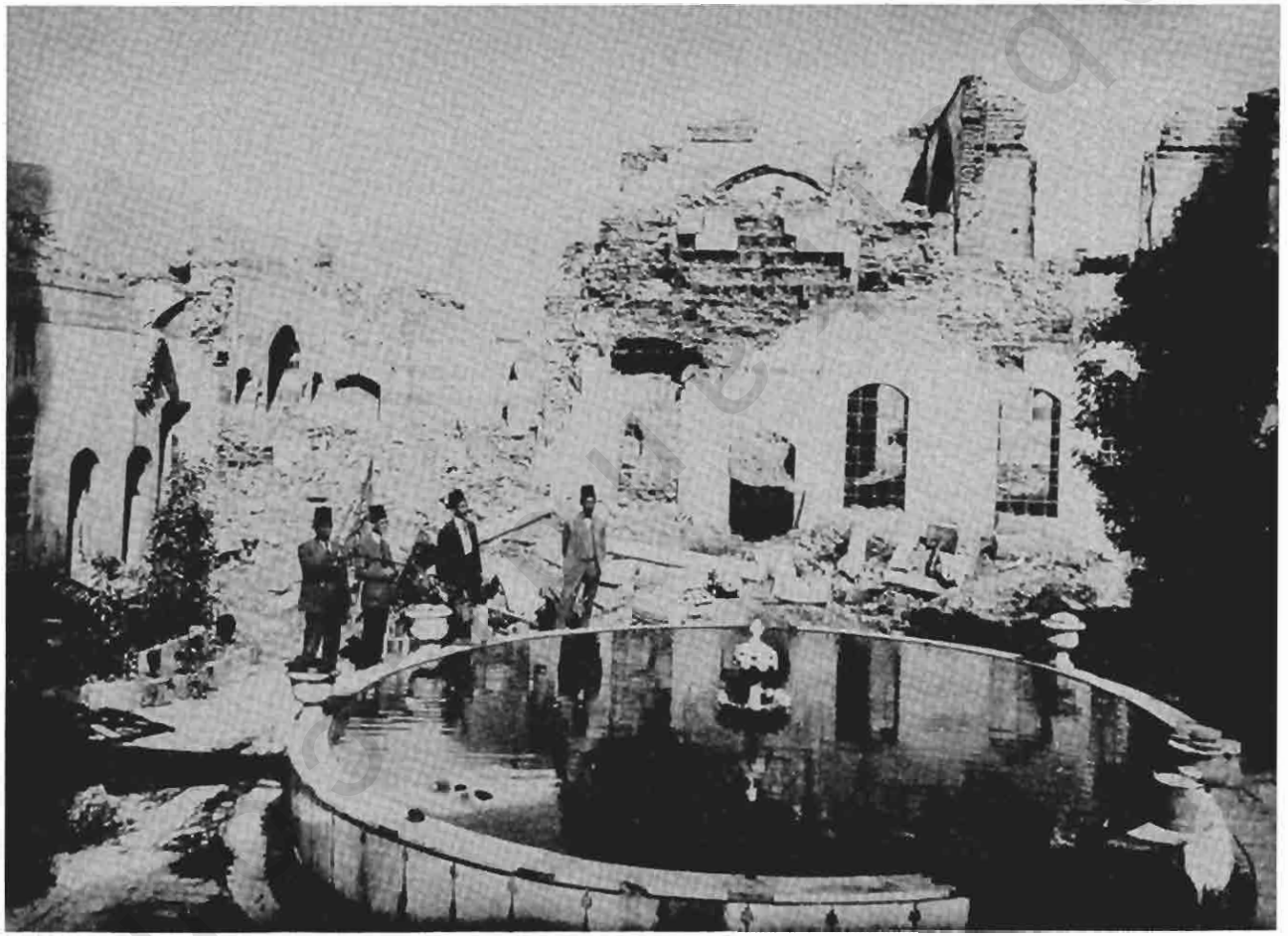

إحدى نتائج القصف الفرنسي في 1925 ، خرائب دار مراد أفندي القوّتلي بسيدي عامود

قلت :

وأما جدة أمي نفسها ، راوية هذه المذكرات ، فقد أغمض الموت أجفانها وأسكت آخر أنفاسها ، بمنزل ابنها محمد آق بيق بحي السّكة في المهاجرين بدمشق في شهر أيلول من خريف عام 1958 .

عليها الرّحمة والرّضوان .

* * * * *

وأخيراً . .

سيأتي علينا الدّور ، وسنموت كما ماتت فاطمة البديوي ، وابنتها الطفلة جيهان ، ومحمود وزهرة ، وزوجها أحمد آق بيق ، وابنها محمّد ، ثم بدأت بضعة من حفيداتها بالانتقال إلى الدّار الآخرة (ربيعة وابتسام) . .

سنرحل جميعاً ، كما رحلت جميع شخصيات هذه المذكرات بأسرها دون استثناء . . إن عاجلاً أم آجلاً .

سنرحل ، وتبقى الذكريات ، وتبقى الغالية دمشق .

إيه يا دمشق . .

يا جدّة المدن ، ويا سحر الشَّرق . .

فيك ولدنا ، وترعرعنا ، وتعلّمنا حبّ الوطن ، فيك نَمَتْ أحلامنا وأزهرت آمالنا ، وفيك دغدغ الحبّ شغاف قلوبنا في سنّ الشَّباب ، وأحرقت ذكريات الماضي صميم أرواحنا ، عندما تبدّد الماضي وغابت عن مآقينا أوجه عزيزة ، واختفت ضحكات وتبدّلت أيام وسنوات .

obeikandl.com

سنتركك يوماً ، ولكن . . لا تنسينا أيتها الحبيبة الخالدة دمشق . لتبق أسماؤنا مسجّلة على ذُرى قاسيونك وبين أزقّة حاراتك الحانية الوديعة .

ستبقين يا دمشق ، على أديم الدّهر ، سحراً وألَقاً وتاريخاً وأصالة لا تمحوها القرون . وتغدو أسماؤنا وحياتنا وذكرياتنا مجرّد أصداء زائلة فانية ، كنسمات خريفية هبّت ورَمَت بأوراق ذَوَت واصفرَّت في أدواح الغوطة ، أو على ذُرى جبال لبنان الشرقية المحتضنة لدمشق ، أو تسلسلت مع سواقي وادي بردى الرّقراقة بين أرجاء غياضه الجميلة .

سجّلنا ها هنا كُليمات من ذكريات فاطمة ، ابنة دمشق . . ولكن ، كم من آلاف الذكريات الغالية والحكايات الغريبة النادرة ، والآلام والأماني والعَبَرات ، مضت وبادَت مع أصحابها ، ولم يدركها حظ لتتسجّل على الورق !

كل هذا لا يهم ، طالما ستأتي أجيال جديدة ، وتحافظ على تراث الأجداد ، وتتذكّر على الدّوام أن دمشق باقية ، وأرواح أبنائها معلّقة بها إلى الأزل .

* * * * *

التكيّة السليمانية ، نقيشة تعود للقرن التاسع عشر

مستدركات

بعد الرّجوع إلى المذكرات المكتوبة لجدّة أمي ، فاطمة البديوي ، رَوَت لي خالتي الحبيبة زهراء آق بيق – أمدّ الله في عمرها ، وأعطاها الصحّة – بضعة وقائع عائلية ، وجدتُ في إيرادها هنا فائدة وتتمّة لما كنتُ بدأت بتدوينه .

عرس محمد آق بيق
ابن فاطمة صاحبة المذكرات

في عام 1920 ، كان عمر محمد بن أحمد آغا آق بيق 16 عاماً (وهو من مواليد 1904) ، وكان في الصف الثامن لمّا قرّر أهله تزويجه ، فخطبوا له إحدى بنات العائلة (إنعام القبّاني) ، وكانت ابنة 11 عاماً (من مواليد 1908) ، وهي ابنة خليل بن أحمد آق بيق (الشهير بأبي خليل القبّاني رائد المسرح في سورية) . وكانت عائلة القبّاني هذه فرعاً من آل آق بيق ، حملت اسم القبّاني نسبة لحرف مال القبّان التي زاولها محمد آغا آق بيق والد أبي خليل .

وكانت العروس إنعام تقيم في بيت ذويها في منطقة زقاق الصّخر ضمن بساتين كيوان الجميلة ، على طريق الرّبوة . وما زالت أطلال دار خليل القبّاني ماثلة إلى عصرنا الحاضر ، بعد أن تداعت أكثر أركانها إثر وفاة آخر أولاده في عام 1989 . وكانت تلك الدار من أجمل الدّور موقعاً ، تقع على مسافة بسيطة من قصر الغزّاوي الشهير ، وتطلّ على وادي النهر غير بعيد عن طاحون كيوان ، وتحفّ بها الأشجار والزروع والأزاهير الجميلة النادرة ، ومنها ياسمينة زرقاء كانت مثاراً لتندّر كل من يراها .

أما العرس ، فكان بالطبع في دار والـد العريس بمحلّة تحت القناطر بزقاق سيدي عامود ، وتم في بدايات فترة الاحتلال الفرنسي لسورية عام 1920 . وقد دُعيت إليه أعداد كبيرة من النساء ، من الأهل والأقارب والجيران ، وكان عرساً كبيراً غنّت فيه «بنات مَكْنُو» الشهيرات .

غير أن أكثر النساء كنّ يتفاجأن من صغر حجم العروس واصفرار لونها ، وكانت أصيبت بالتيفوئيد ، حتى أن زوجة جارهم ابن القوّتلي قالت لفاطمة أم العريس : «شو ما لقيتي لإبنك محمد غير هالفَرْتوكه ؟» . . غير أن نفس المرأة بعد 3-4 سنوات ، دخلت بيت أحمد آغا ، فرأت صَبيّة جميلة ابنة 14-15 سنة ، وقد انسدل شعرها البنّي الطويل على كتفيها فبلغ خصرها ، ولاحت على محيّاها الجميل مسحة جمال آسرة ، تزيّنها عينان خضراوان وبشرة بيضاء مُشربة . أطالت الجارة النظر وقالت لفاطمة : «إي هَهْ ، هيك كنت خديلُه وَحده حلوه لمحمّد . . شو هاد ؟» . قالت فاطمة : «ولك هَي هيّه بذاتهَا مَرْت محمّد !» ، وكانت كبرت وتبنّت .

نعود إلى العرس :

أكبر مفاجأة كانت عندما دخل العريس والعروس إلى المَخْدَع ، قال وإذا بولاويل العروس تتعالى بقوّة من الداخل ، والعياط والبكاء .

يا لطيف . . ما الذي جرى ؟

اندفعت فاطمة إلى الدّاخل مسرعة . . «ولك خير ، شو فيه ؟» . . وإذا بها تفاجأ بالعروس ابنة الـ 11 عاماً وهي تقول لها : «بدّي سكاكر . . ما خلاّني محمد آكل سكاكر من هادا السَّبَت اللّي هون !» .

ماذا يُتوقّع من عريس عمره 16 سنة ، وعروس عمرها 11 ؟

* * * * *

وقيل كانت فاطمة تلاقي التباريح من ولدنة كنّتها إنعام ، التي كانت ما تزال طفلة ، فتارة تراها تقصّ الستائر مع ابنة حميها الصغرى ، ويعملان منها أثواباً للّعبة ، وتارة تقفز بين أطباق الرزّ بحليب المفرودة فتدوس في داخلها ، وطوراً تلقي بسجّادتها في بركة البيت حتى تغسلها .

لكن الأطرف من ذلك كان زوجها محمّد ، الذي كانت «تكعى» في العثور عليه لتناديه لطعام الغداء ، فتعثر عليه أخيراً فوق الشجرة «متعمشقاً» يلعب . . يا له من «عريس فوق الشجرة» .

«شهر عسل على بسكليته»

كانت لمحمّد درّاجة هوائية «بسكليته» ، فلمّا تزوّج من إنعام شاء أن يأخذها «دورة» على بسكليته ، فماذا يفعلان طيلة الوقت إن لم يلعبا كباقي الأولاد في سنّهما ؟

فتحيّن العروسان فرصة عدم انتباه الكبار لهما ، ودلفا من باب «الصقاق» إلى الحارة ، وأردف محمد عروسه على البسكليته خلفه ، وكانت بلا نقاب ! ولعبا ما حَلا لهما أن يلعبا في الحارة .

ثم للقارئ الكريم أن يتخيّل اللّقاء المثير الذي كان بانتظار العروسين ، عندما اكتشف الأهل غيابهما ، فأكلا «قتلة» ماكنة بَسْطُون أحمد آغا ، كانت كافية حتى لا يفكّرا مجرد تفكير بإعادة المحاولة .

هذه كانت العادة المألوفة في دمشق في الماضي ، فسنّ الزواج للعروسين لم تكن تزيد عن ذلك كثيراً ، وكانا يقيمان بالطبع مع الأهل كطفلين في العائلة .

* * * * *